
٤


جواب من سأل عن كيفية
علم الله سبحانه قبل الإيجاد من أهل الأثر

أملاه أدام الله فيضه في جواب من سأله عن كيفيّة علم الله سبحانه قبل الإيجاد من أهل أبهر.[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب بعض الأفاضل من سكّان الأبهر إلى المحقّق الأستاد[2] العلّامة ـ رفع الله قدره وأعلى مقامه[3] ـ يسأله عن هذه المسألة، بعد أن سأل زمرة علماء العصر ـ بسط الله بركات إفاداتهم على الآفاق ـ، فلم يجيبوه بما يقوم على ساقٍ؛ فقال: «إن كان الله سبحانه وتعالى عالماً بالموجودات في الأزل قبل وجودها بالفعل ـ كما هي في نفس الأمر من غير تفاوت فيه ـ فيلزم تحصيل الحاصل من الإيجاد ؛ وإن كان عالماً بها لا كما هي من جميع الجهات، فيلزم جهله سبحانه من بعض الحيثيّات ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ رحم الله من خلّصني من هذه الشبهة». انتهى كلام السائل.

فكتب ـ أفاض الله سوابغ إحسانه إليه ما دامت الأعالي فائضة البركات على الأسافل ـ: لقد سألت أيّها الأخ العزيز ـ أعزّك الله في الدارين وأيّدك بروح منه ـ عن مسألة صعب المدرك عزيز المنال[4]، وعندي لها ما يصلح للجواب بزعمي، فإن

---

١ ـ هذه العبارة وردت في أ .

٢ ـ في ب وج: جدّنا الأمجد .

٣ ـ في ب وج: عطّر الله سبحانه وتعالى تربته وأعلى في فراديس الجنان مقامه .

٤ ـ ب: المثال.

أصبتُ فمن الله وله الحمد والمنّة، وإن أخطأتُ فمن نفسي، والله غفور رحيم.

فنقول ـ وبالله التوفيق ومنه التأييد ـ: إنّ الله سبحانه عالم بالموجودات كلّها في الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال، علماً ثابتاً لا يتغيّر بتغيّر المعلوم، ولا يتفاوت بحدوث وجودات الأشياء في ما لا يزال بعد فقدانها في الأزل؛ وذلك لأنّه ينافي فقدانها في الأزل على ما هي عليه بالفعل علمه ـ جلّ وعزّ ـ بها في الأزل على ما هي عليه بالفعل، لأنّه إنّما يعلمها في الأزل على ما هي عليه بالفعل بجميع أحوالها الثابتة لها في نفس الأمر، ومن جملة أحوالها الثابتة لها في نفس الأمر أنّها فيما لا يزال دون أن تكون في الأزل، وذلك لإحاطته سبحانه في الأزل بما لا يزال وما فيه، كإحاطته بالأزل وما فيه: فإنّه ـ جلّ وعزّ ـ محيط بجميع الأزمنة والأمكنة وما فيهما من الزمانيّات والمكانيّات، كما أنّه محيط بما خرج عنها.

فإن قلت: إنّها لم تكن موجودةً في الأزل، فكيف أحاط بها في الأزل؟

قلنا: إنّها وإن لم تكن موجودةً في الأزل لأنفسها وبقياس بعضها إلى بعض على أن يكون[1] الأزل ظرفاً لوجوداتها كذلك، إلّا أنّها موجودة في الأزل لله سبحانه وجوداً جمعيّاً وحدانيّاً غير متغيّر مقيّداً بكينونته لله سبحانه فيما لا يزال؛ بمعنى أنّ وجوداتها اللايزاليّة الحادثة ثابتة لله سبحانه في الأزل.

وهذا كما أنّ الموجودات الذهنيّة موجودة في الخارج، إذا قيّدت بقيامها بالذهن وإذا أطلقت من هذا القيد فلا وجود لها إلّا في الذهن[2]؛ فالأزل يسع القديم والحادث

١ ـ ب وج: لا يكون.

٢ ـ حاشية أ: «وليحسن التأمّل في هذا المثال لئلّا تتوهّم منه أنّ الأشياء في الأزل كالأمور الذهنيّة وفيما لايزال كالأعيان الخارجيّة بل الأمر فيه بالعكس من ذلك. منه».

والأزمنة وما فيها وما خرج عنها، وليس الأزل كالزمان وأجزائه محصوراً مضيّقاً يغيب بعضه[1] عن بعض ويتقدّم جزء ويتأخّر آخر . فإنّ الحصر والضيق والغيبة من خواصّ الزمان والمكان وما يتعلّق بها ؛ والأزل عبارة عن اللازمان السابق على الزمان سبقاً غير زمانيّ .

وليس بين الله سبحانه وبين العالم بعد مقدّر؛ لأنّه إن كان موجوداً يكون من العالم؛ وإلّا لم يكن شيئاً ولا ينسب أحدهما إلى الآخر من حيث الزمان بقبليّة ولا بعديّة ولا معيّة، لانتفاء الزمان عن الحقّ وعن ابتداء العالم. فسقط السؤال بـ«متى» عن العالم كما هو ساقط عن وجود الحقّ ؛ لأنّ «متى» سؤال عن الزمان، ولا زمان قبل العالم. فليس إلّا وجود بحت خالص ليس من العدم وهو وجود الحقّ، ووجود من العدم وهو وجود العالم .

فالعالم حادث من غير زمان، وإنّما يتعسّر فهم ذلك على الأكثرين لتوهّمهم الأزل جزءاً من الزمان يتقدّم سائر الأجزاء وإن لم يسمّوه بالزمان . فإنّهم أثبتوا له معناه، وتوهّموا أنّ الله سبحانه فيه ولا موجود فيه سواه، ثمّ أخذ يوجد الأشياء شيئاً بعد شيء في أجزاء أخر منه؛ وهذا توهّم باطل وأمر محال، فإنّ الله جلّ وعزّ ليس في زمان ولا في مكان، بل هو محيط بهما وبما فيهما وما معهما وما تقدّمهما.

وتحقيق المقام يقتضي بسطاً من الكلام وفتح باب علم مكنون لا يسعه العقول المشوبة بالأوهام . ونحن نشير إلى لمعة منه لمن كان أهله . سائلين من الله جلّ وعزّ أن يحفظها عن القاصرين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحقّ إن شاء الله .

فنقول: ليعلم: أنّ نسبة ذاته سبحانه إلى مخلوقاته يمتنع أن يختلف بالمعيّة واللامعيّة،

١ ـ في ب: بعضها .

وإلّا فيكون بالفعل مع بعض وبالقوّة مع آخرين، فيتركّب ذاته من جهتي فعل وقوّة، ويتغيّر صفاته حسب تغيّر المتجدّدات المتعاقبات تعالى عن ذلك؛ بل نسبة ذاته التي هي فعليّة صرفة وغناء محض من جميع الوجوه إلى الجميع وإن كان من الحوادث الزمانيّة، نسبة واحدة ومعيّة قيّوميّة ثابتة غير زمانيّة ولا متغيّرة أصلاً ؛ والكلّ بغنائه بقدر استعداداتها مستغنيات، كلّ في وقته ومحلّه وعلى حسب طاقته، وإنّما فقرها وفقدها ونقصها بالقياس إلى ذواتها وقوابل ذواتها ، وليس هناك إمكان وقوّة البتّة.

فالمكان والمكانيّات بأسرها بالنسبة إلى الله سبحانه كنقطة واحدة في معيّة الوجود، «وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ»[1]. والزمان والزمانيّات بآزالها وآبادها كآن واحد عنده في ذلك جفّ القلم بما هو كائن، ما من نسمة كائنة إلّا وهي كائنة . والموجودات كلّها شهاديّاتها وغيبيّاتها كموجود واحد في الفيضان عنه، «مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»[2]. وإنّما التقدّم والتأخّر والتجدّد والتصرّم والحضور والغيبة في هذه كلّها بقياس بعضها إلى بعض، وفي مدارك المحبوسين في مطمورة الزمان المسجونين في سجن المكان لا غير . وإن كان هذا لمماً تستغربه الأوهام ويشمئزّ عنه قاصروا الأفهام .

وأمّا قوله ﷻ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»[3] ؛ فهو ـ كما قاله بعض أهل العلم ـ: «إنّما شؤون يبديها لا شؤون يبتديها»[4].

١ ـ الزمر: ٦٧ .

٢ ـ لقمان: ٢٨ .

٣ ـ الرحمن: ٢٩ .

٤ ـ قاله الحسين بن الفضل في جواب عبد الله بن طاهر؛ راجع: تفسير الثعلبي: ٩/١٥٤؛ تفسير الرازي: ١٠٩/٢٩ .

در اين مشهد كه انوار تجلّيست سخن دارم ولى ناگفتن اولى است[١]

ولعلّ من لم يفهم بعض هذه المعاني يضطرب فيصول ويرجع، فيقول : كيف يكون وجود الحادث في الأزل، أم كيف يكون المتغيّر في نفسه ثابتاً عند ربّه، أم كيف يكون الأمر المتكثّر المتفرّق وحدانيّاً جمعيّاً، أم كيف يكون الأمر الممتدّ أعني الزمان واقعاً في غير الممتدّ أعني اللازمان؛ مع التقابل الظاهر بين هذه الأمور، فلنمثّل له بمثال حسّيّ يكسر سورة استبعاده، فإنّ مثل هذا المتعرّض لم يتجاوز بعد درجة الحسّ والمحسوس، فليأخذ أمراً ممتدّاً كحبل أو خشب مختلف الأجزاء في اللون، ثمّ ليمرّره في محاذاة نملة أو نحوها ممّا تضيق حدقته عن الإحاطة بجميع ذلك الامتداد . فإنّ تلك الألوان المختلفة متعاقبةٌ في الحضور لديها، يظهر لها شيئاً فشيئاً واحداً بعد آخر لضيق نظرها، ومتساوية في الحضور لديه تراها كلّها دفعةً لقوّة إحاطة نظره وسعة حدقته، «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ»[٢]، والحمد لله[٣].

وكتب هذه الأحرف بيده الفانية محمّد بن مرتضى المدعوّ بـ«محسن» الكاشي أيّده الله في أولاه للتزوّد لأخراه.[٤] .

---

١ . الشيخ محمود الشبستري، گلشن راز .

٢ ـ يوسف: ٧٦ .

٣ ـ زاد في ب: ربّ العالمين .

٤ ـ زاد كاتب أ : «نقلته من خطّ يده متّعنا الله ومعاشر الناهضين بجناح المعرفة واليقين بدوام خدمته في أهنى العيش وأرغده لبعض شهور سنة إحدى وتسعين وألف من الأعوام الهجريّة الباهرة سلام الله على الصادع بها وعلى عترته الطاهرة والحمد لله على آلائه المستفيضة المتكاثرة حمداً نافعاً في الدنيا والآخرة والصلاة على سيّد الخليقة محمّد وآله خير البريّة».